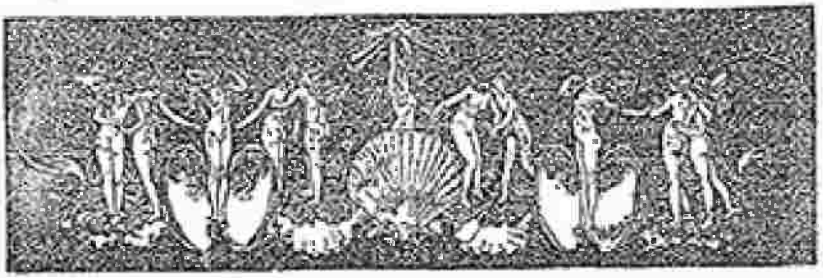

حورية البحر

للشاعر الروسي قسطنطين بالمونت

* * *

١

في مملكة عذارى البحر المنبسطة على قعر الخضم المظلم الرطيب يدوي في الارجاء دون انقطاع لحن مبهم تغنيه غادات العمق غير شبيه بالحان الاحياء ، ولا أثر به لرعشات الجوى ، ولا لانين السنين الغابرة . ولا بدع ، فليس في تلك المملكة من ازاهر أو بشر أو تذكارات يخفق لها الفؤاد ، ولا من امواج تتلاطم بضجة أو اشعة نور تتألق وتتكسر — ليس الا ترنيمة اولئك العذارى تدوي كأنها في حلم — تلك ترنيمة لا تخص أحداً منهن اذ انهن جميعاً متساويات في ذلك العمق الرطيب . لهن طراً ضحكة واحدة خالية من أثر الصوت ، ولهن جميعاً احلام متشابهة يرنمون بها .

لا موت يسطو هنالك بين الاحجار والاسماك الجميلة ، فلذلك لم يهلك أحد من العذارى رغم توالي السنين المتشابهة . فكن جميعاً يمرحن مرنمات

بين النباتات الشفافة المنتصبة الشبيهة بهن في حلوها من قطرات الحياة ، ناظرات بعيون جميلة شفافة ، لا يشترين شيئاً بالام النفس ولا يبعن بشيء نفوسهن ، منشدات لحناً ينم عن احلام صامتة حاثاً على الاستسلام الى النوم يقول

— نحن يا عذارى الاعماق نحن ! فما اجمل قعر هذا العمق ، وما اجمل اننا كلنا به متساويات .

٣

بيد أن صوتاً جديداً ضعيفاً يشبه الهمس نطق ذات يوم لاول مرة بين اولئك العذارى الحالمات — صوت لطيف يشبه تنهد العشب فوق الارض قال همساً

— عفوا يا اخواتي الجميلات عن جسارتي فاني لا استطيع ان اصمت . انا منكن ولكني لست مثلكن ولا ابتغي ما تبتغونه . انا خيالية مثلكن من عذارى العمق ولكني اشعر بحاسة غريبة قد عكرت صفاء احلامي . انا جميلة بين الجميلات . انا هيفاء ناصعة البياض . ولكني غير مكتفية بهذه المزايا والصفات . واريد ان اعلم هل اعطيت الحقيقة لنا وحدنا . نحن هنا نسرح ونمرح ونستنشق هذا السائل ما بين الحجارة الكثيرة الالوان ، ولكن من يدري ؟ فلربما يعيش الناس على سطح الارض حياة احسن من حياتنا ، ويستنشقون الهواء ويحيون بحرية افضل مما عندنا . فاذا تقلن لو خرجت الى سطح الامواج حيث تمر السفن وشاهدت الافق والشمس المشتعلة في البعد؟

وكأن العذارى فهمن ما مُنع عليهن فهمه فصمتن وهبط الظلام على قلوبهن واصفرت وجوههن فغادرن المكان مرتجفات يعثرن زالقات كأنهن سمعن صوتاً حُظر عليهن سماعه

٣

اما تلك العذراء فظلت لوحدها واستولى عليها البرد والاصفرار وتولاها الرعب لانها كانت تخاف الوحدة وتحب حلقات الجماهير الراقصة وتهوى تلك المياه التي ألفتها على توالي الايام المتشابهة . وكانت تحب اخواتها اللواتي غادرنها الان وحيدة وتعشق احاديثهن واغانيهن والحاظهن الشفافة . فاين تذهب من هنا ؟ أتمضي الى الارض ؟ ألا يمكن ان تكون الارض مظلمة ؟ أو ألا يجوز ان تكون خالية من الغرائب والعجائب المدهشة التي تكثر في قعر البحار ؟ بل كيف تستطيع وهي حوائية لطيفة ان تخترق كثافة هذه المياه المتراكمة ؟

ولكن دافعاً من افكارها دعاها الى المخاطرة كما يدعو الحبيب المطاع فلا تعصى أوامره فاغراها بالذهاب .

٤

وبينما هي على هذه الحال فطنت ان في بعض مجاهل العمق مكاناً رهيباً رائعاً محظوراً عليها وعلى اخواتها ان يطرقنه . وفيه مغارة سرية يقطنها شخص مبهم لا يدري أحد من هو . قيل انه ساحر أو ساحرة أو تنين أو سيد الحياة أو سلطان البحر . على انها لم تكن تعلم شيئاً من حقيقة أمره لانها لم تشأ

سابقاً ان تخترق حرمة المحرمات . اما الان فسهل لها عزمها اختراق المحظورات فجئت على باب المغارة وهتفت متضرعة قائلة

— اهدني الى الطريق المهيأة لي

فدوى في الظلام القاني الرائع المخيم في ذلك العمق صوت آمر قدير يقول

— أأنت ايضاً جئت الي يا ابنة البحر ؟ قد أتى قبلك الي كثيرات من عذارى العمق حين اشتهين ان يغادرن هذه الاتحاء الى مجاهل العالم فظفرن بما أملنه وصرن في ذلك العالم المجهول كباقي البشر . ولكن أعلمي يا هذه انه لا رجوع من ذلك العالم الى هنا . لا عودة الا لجثث الغرقى لتقص علينا اخبارها ووقائعها في الزمان بشفاه ميتة تعلوها ابتسامه المرارة . لا تطلبي مني ان اقول لك شيئاً عما في ذلك العالم . فاذا اردت الانطلاق اليه فدونك . سأدلك على طريق سرية تقودك اليه .

ثم انحنى الشخص المجهول فوق العذراء وهمس في اذنها قائلاً

— اليوم انتصاف القمر . اليوم يملك القمر . اسمعي — ان في البحر مسالك خفية عديدة فلتقدك قدمك الى احدها . تصلين اليها فيتم ما قدر لك وتغادرين عالم المياه وتدخلين عالم الهواء فتصبحين تتنفسين كباقي البشر . ولكن قبل ان تصلي الى العالم ستتغير هيئتك فلا تيقين كما أنت غادة بيضاء بل تستحيلين اولاً زهرة من ازاهر البهاء ثم تصيرين حورية لطيفة مكللة بمحاسن النساء . فتودعين هذه الصحراء المائية بنفس مفعمة

بخفايا العمق . ثم بعد ليلة من ليالي القمر مملوءة بالاسرار تتفجرين كأي زهرة موجة متقلبة تستيقظين وتفتحين عينيك فترين الشمس في قبة السماء .

٥

ما اجمل الليالي الخيالية لاولئك الذين احبوا ثم خمدوا ! ما اجملها لاولئك الذين يشعرون بقصر ساعة اللقاء الشهية في الحب !

وما اجمل تأثير القمر المولود جديداً اذ يكون هلالاً صغيراً يكاد لا يظهر للعيان ! ان ذلك التأثير لاشد فعلاً في قلب الامرأة الحساس من احلام باسقة فخمة .

ولكن اجمل من هذا وتلك ، وأفعل في القلوب بجلاله وعظمته مشهد زهرة لم تتفتح اوراقها بعد .

ألا فلتوبّد ولتخلد جسارة تلك النفس الغريبة التي طمحت الى الارض — تلك الوردة الجميلة التي ظهرت على سطح الامواج ساعة ولادة القمر

تجاذبتها المجاري لما طفت من الاعماق حتى وصلت الى الموجة التي قبلتها عنها مدفوعة بعاطفتها المجهولة وقوة امانيها الخفية . وهنالك استسلمت الى الليل ففتحت اوراقها ثم تمت ولادتها ولادة ثانية فاستحالت حورية لا يحلم الليل بها .

ولاح الصبح في المساء فشعرت بدفء منعش في اعضائها ففتحت عينيها فابهرتها الشمس البازغة .

٦

ظلت يوماً بتمامه تتقاذفها الامواج وهي تتهادى عَلَى سطحها بلا حس كأنها شبح من ضباب . ولم يُتح لاحد من البشر ان يشهد هنالك تقلبات ملامح وجهها المعذب ، أو ان يراها ، وهي حية أقرب شيء الى الاموات ، او ان ينظرها تعارك الامواج وتغطس ثم تعلو فوق المياه .

ولما حان المساء ولاحت في البعد منائر الليل اخرجها الصيادون بالصدفة وزبد الامواج يكسوها . وكانت عيناها جامدتين ونورهما قد انطفأ ولكن قلبها كان يخفق خفقاناً شديداً في جسمها .

وظلت الامواج تضج وتتكسر عَلَى الشاطىء الحجري طولَ الليلِ . وكان دويها مزعجاً رهيباً

٧

نظرت عيناي فارتعشتا . كنت أحدق في الفضاء ذات ليلة من ايام الربيع حين كان القمر في انتصافه — في ساعة يولد بها الهلال فتجمع بين الازلية والابدية ويمتلىء لها القلب اضطراباً وجذلاً ، وهي تخطر عَلَى تخوم العوالم واذا بعيناي قد صادفتا نظرة صادرة من عينين شفافتين تخبطان عَلَى غير هدى في شوارع احدى المدن الكبيرة

آه وا لهفي عَلَى تينك العينين ! يا له من طرف تنعكس فيه اشعة احلام خامدة في ظل اجفان جامدة ! يا له من طرف لا يتألق فيه سحر ربيع قد مضى ولا بريق انهار مسرعة ، ولكنه مترع بظلمات اعماق البحار — اذ قد عمي

الى الابد ·

كانت الحورية صاحبة ذلك الطرف واقفة عبرة للالباب ومثلاً من امثال الحرمان الفائق تطرق باب بيت دامس قد أغلق دونها · ورأيت من شباكي العالي ان حورية البحار قد اصبحت شحاذة تدور في الاسواق

فطفقت انشد على مسامعها اغنية نظمتها عن البحر — عن حورية عذبتها الاحلام واوحت اليها ان في الكون عالماً غير عالم المياه ودست الاماني في عقلها ان العالم قد أعطي حقيقتان — واحدة للنفوس والاخرى للاجسام الظامئة الراغبة ·

ثم صمت وأصغيت متألماً لارى ماذا تجيب عذراء العمق · فسمعتها تقول بضع كلمات اتيت انقلها اليكم

قالت — ألم أظفر برؤية الشمس ؟ وكفى برؤيتها وطراً تستهل دونه الصعاب ·